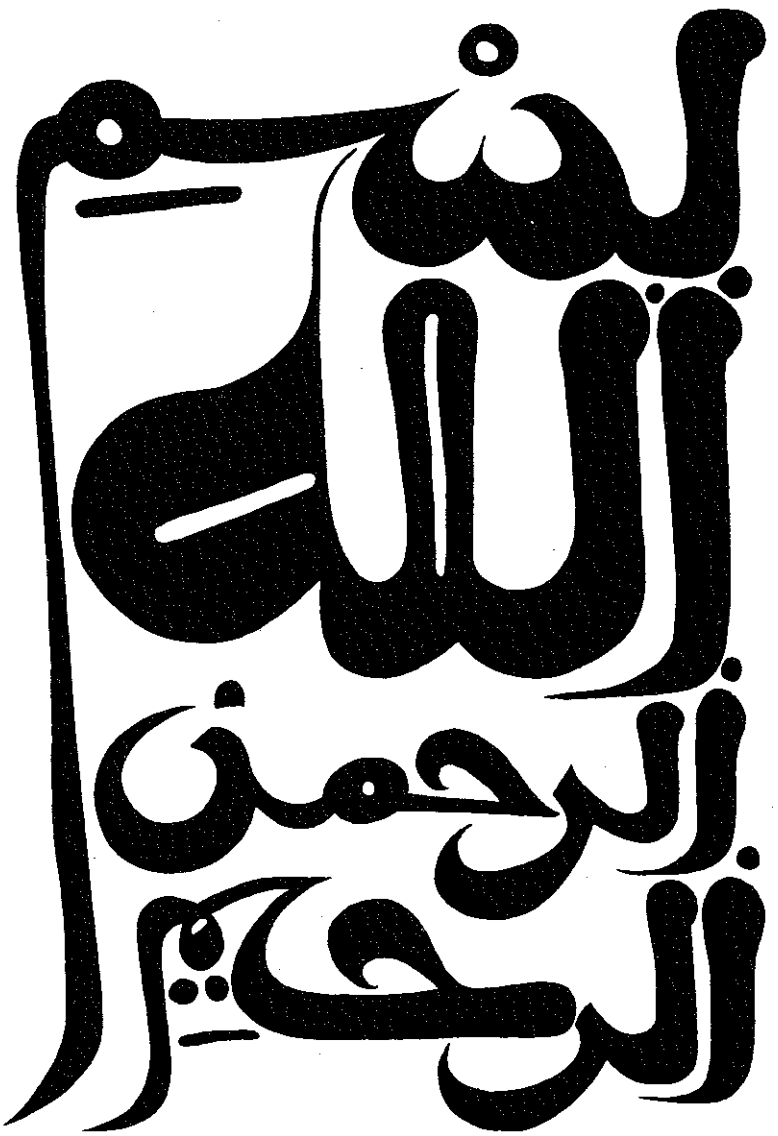
بسم الله الرحمن الرحيم

الموسوعة المصرية تاريخ مصرالقديمة و آثارها: تاريخ و آثار مصر الاسلامية,London (tarihsiz). ص.   İSAM 90154 .

صدر
هذا الجزء
باشراف

الأستاذ الدكتور عبدالحميد يونس
الأستاذ الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور
الأستاذ الدكتور حسنين ربيع
الفنان حسن عثمان
الأستاذة ليلى أحمد عدس

الموسوعة المصرية تاريخ مصرالقديمة و آثارها: تاريخ و آثار مصر الاسلامية, London (tarihsiz). ص. . İSAM 90154

لجنة التحرير

السيد/ الأستاذ **محمد صفوت الشريف**

وزير الاعلام رئيسا شرفيا

السيد/ الدكتور **ممدوح البلتاجى**

رئيس الهيئة العامة للأستعلامات مقررا

الأستاذ الدكتور **عبدالحميد يونس**

الأستاذ الدكتور **أحمد كابشى**

الأستاذ الدكتور **محمود الشنيطى**

الأستاذ الدكتور **محمد جمال مختار**

الأستاذ **فوزى عبدالوهاب رضوان**

الدكتورة **زينب عبدالعزيز مصطفى**

الأستاذة **ليلى احمد عدس**

الموسوعة المصرية تاريخ مصرالقديمة و آثارها: تاريخ و آثار مصر الاسلامية,London (tarihsiz). ص. İSAM 90154 .

اللوحات
اعداد واشراف

محمود صالح الحديدى
عبد الرءوف على يوسف
يحيى الشايب
حسن عثمان
ليلى أحمد عدس
فتحية حسين خليل
هدى على عبده
نادية رشيد
عيد عبد الحميد
أحمد المغربى
قسم التصوير :
بمتحف الفن الاسلامى
قسم التصوير :
بدار الآثار الاسلامية

الفهارس
من اعداد

الأستاذة زينب الفوانيسى

الموسوعة المصرية تاريخ مصرالقديمة و آثارها: تاريخ و آثار مصر الاسلامية,London (tarihsiz). ص. İSAM 90154 .

سكرتارية التحرير

الاستاذة عفت رشدى شعبان
الأستاذة عزيزة حمزة سيد
الأستاذة فتحية حسين خليل
الأستاذة هدى على عبده
الأستاذة نادية فؤاد رشيد
الأستاذة سنية عبدالمنعم سيف
الأستاذة منى الهامى طه

الموسوعة المصرية تاريخ مصرالقديمة و آثارها: تاريخ و آثار مصر الاسلامية, London (tarihsiz). ص. . İSAM 90154

اشترك فى التحرير

الأستاذ الدكتور ابراهيم أحمد العدوى
الأستاذ الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى
الأستاذ أحمد ممدوح حمدى
الأستاذ أحمد مراد اسماعيل
الدكتورة آمال العمرى
الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف
الأستاذ الدكتور حامد زيان غانم
الأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع
الأستاذ الدكتور حسن الباشا
الأستاذ حسن عبد الوهاب
الدكتور حلمى محمد سالم
الأستاذة الدكتورة سعاد ماهر محمد
الأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف
الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
الأستاذ الدكتور عبد الرحمن فهمى محمد

الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب
الأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس
الأستاذ عبد الرءوف على يوسف
الأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى
الدكتور عبد الرحمن زكى
الأستاذ الدكتور فريد شافعى
الأستاذ الدكتور محمد محمد أمين
الأستاذ الدكتور محمد حلمى محمد أحمد
الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين سرور
الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين الفندى
الأستاذ الدكتور محمد محمد مرسى الشيخ
الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة
الأستاذ الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق
الأستاذ الدكتور نبيل محمد عبد العزيز
الأستاذة وفيّة عزى

الموسوعة المصرية تاريخ مصرالقديمة و آثارها: تاريخ و آثار مصر الاسلامية, London (tarihsiz). ص. . İSAM 90154

مقدمـــة

لم يعد الاعلام كما كان فى الماضى ، مجرد جهاز يقوم على تسجيل الأخبار واذاعتها ، وانما اصبح المقياس الدقيق لمدى التقدم الذى حققته الامم ، يوضح الاهداف ويستشرف المستقبل .

وحرصت الهيئة العامة للاستعلامات على الاخذ بالاساليب العلمية لتأكيد دورها فى الاعلام الثقافى واصدرت الجزء الاول والثانى من موسوعة مصر وجاء هذا الجزء الثالث ليتناول فترة تاريخية هامة من تاريخ مصر منذ الفتح الاسلامى لمصر عام ٦٤١ م حتى العصر العثمانى ١٥١٧ م .. وهى الفترة التى استطاع العرب فيها استكمال المقومات السياسية والاقتصادية اللازمة لتنشئة دولة اسلامية مستوفية شروط البقاء والتطور نحو العالمية التى نادى بها الدين الاسلامى .. وقد استقرت مصر ولاية اسلامية عربية تابعة للخلافة الصحابية بالمدينة المنورة ثم للخلفاء الامويين بدمشق ، ثم للعباسيين ببغداد وتبوأت الولاية المصرية مكانا ممتازا بين ولايات الدول الاسلامية فى عصورها التاريخية المختلفة .. وعاشت مصر عصر الطولونيين ثم عصر الاخشيديين ثم انتقلت الى عصر الدول الفاطمية التى عاشت فى مصر قرنين من الزمان (٩٦٩ هـ - ١١٧١ م) ثم جاء صلاح الدين الى مصر ليبدأ عصر الايوبيين (٥٦٥ هـ - ١٢٥٠ م) الذى استمد اهميته فى تاريخ مصر الاسلامية بالدبلوماسية الجانحة الى السلم رغم تفوقه العسكرى . وفى اواخر ايام الدولة الايوبية فى مصر استطاع المماليك تولى السلطة (١٢٥٠ م - ١٥١٧) ..

ويضم هذا الجزء من الموسوعة الصور والبيانات والخرائط التى ترتبط بالمادة المعروضة ارتباط توضيح او اعلام الى جانب المعارف والمعلومات الخاصة بمصر وتصنيفها على اساس تقسيم المعرفة وتنظيم ابوابها على حروف الهجاء العربى تيسيرا للبحث والمراجعة .

الموسوعة المصرية تاريخ مصرالقديمة و آثارها: تاريخ و آثار مصر الاسلامية,London (tarihsiz). ص. . İSAM 90154

ولقد قام على تحرير هذا الجزء من الموسوعة اساتذة متخصصون فى مادتهم الى جانب تخصصهم فى جمع المعارف وتصنيفها ، وقد قام كل كاتب بالتوقيع على المادة العلمية التى قام بتحريرها مراعاة للتوثيق العلمى الدقيق ، كما عكف على مراجعته من الناحية العلمية والفنية اساتذة متمرسون باعداد الموسوعات والمعاجم .

وقد اختص هذا الجزء بكشافات *INDEX* ثلاث : الاول للاعلام والامم والشعوب والقبائل ، والثانى للمدن والاماكن والبقاع ، والثالث للمصطلحات التاريخية والاثرية ..

وبصدور هذا الجزء تبدأ مرحلة جديدة فى اعداد مادة الجزء الرابع الذى يتناول تاريخ مصر الحديث الذى لا تقتصر اهميته على القارىء العربى لان ما سيقدمه من المعارف يعنى به المتخصصون فى الشئون العربية والمصرية فى العالم كما انه يعرف الرأى العام العالمى بالصورة الصحيحة لمصر المعاصرة وحضارتها واعلام رجالها .

الدكتور ممدوح البلتاجى

رئيس الهيئة العامة للاستعلامات

الموسوعة المصرية تاريخ مصرالقديمة و آثارها: تاريخ و آثار مصر الاسلامية,London (tarihsiz). ص. . İSAM 90154

تاريخ وآثار مصر الإسلامية

الموسوعة المصرية تاريخ مصرالقديمة و آثارها: تاريخ و آثار مصر الاسلامية,London (tarihsiz). ص. İSAM 90154 .

الموسوعة المصرية تاريخ مصرالقديمة و آثارها: تاريخ و آثار مصر الاسلامية,London (tarihsiz). ص. . İSAM 90154

مصـــر الإســـلامية
عـــرض تاريخـــى
٦٤١ - ١٥١٧ م

يصطلح المؤرخون على تخصيص إسم مصر الإسلامية للمرحلة الزمنية الواقعة بين فتح العرب مصر سنة ٦٤١ م ، واستيلاء الاتراك العثمانيين عليها سنة ١٥١٧ م ، وهو تخصيص عملى معقول يستند فيما يستند إلى الصفة العربية الغالبة على المجتمع المصرى الإسلامى والجهاز الحكومى الرسمى بالعاصمة المصرية الإسلامية فى معظم هذه المرحلة ، مع العلم باستمرار الصفة الإسلامية العامة على مصر قبل الفتح التركى العثمانى وبعده فصاعدا حتى العصر الحاضر .

واقترب العرب من البلاد المصرية الغنية وهى وقتذاك أهم ولايات الدولة البيزنطية المسيحية الأرثوذكسية بالشرق الأوسط ، وهم يحملون دينا جديدا هو الإسلام ، ويبتغون فتح تلك الولايات المسيحية المطلة على سواحل البحر المتوسط لاستكمال المقومات السياسية والإقتصادية اللازمة لتنشئة دولة إسلامية مستوفية شروط البقاء والتطور نحو العالمية التى نادى بها الدين الإسلامى الجديد .

فتح العرب لمصر وعصر الولاة :

ولذا جاء العرب إلى مصر من ناحية الشام ، بعد ان فتحوا عدة من البلاد الشامية ، ففى سنة ٦٣٤ م ، وخليفة المسلمين وقتذاك ابو بكر ، وصل إلى الشام جيش عربى إسلامى ، فاتح ، وكان من قادته عمرو بن العاص ذو الخبرات الطويلة ببلاد الشرق الأوسط . وفى أواخر تلك السنة استولى المسلمون على بلدة أجنادين وهى واقعة بين بلدتى الرملة وبيت جبرين بفلسطين الحالية ، وتوفى أبو بكر بعد ذلك بقليل فلم يغير خليفته عمر بن الخطاب شيئا من سياسته أو يحول الجيوش العربية الإسلامية فى الشام عن عزمها المرسوم . وتوالى إستيلاء المسلمين على البلاد بسهولة ، لأن اضطهاد الدولة البيزنطية لأهل البلاد من العرب المسيحيين المخالفين للمذهب الارثوذكسى الرسمى (المذهب الملكانى) جعل من اولئك العرب المسيحيين أحلافا للفاتحين المسلمين ، ولأن اليهود كانوا عاقدين النية على الانتقام من الدولة البيزنطية المضطهدة لهم كذلك بأن صارت جيوش العرب اذلاء فى بلاد الشام ، ولذا وقعت دمشق فى أيدى المسلمين سنة ٦٣٥ م ، وتلا ذلك تسليم مدينة بيت المقدس ٦٣٦ م على شرط أن يأتى الخليفة عمر بنفسه ليكتب عهد

الأمان ، ثم فتح المسلمون قيسارية وغيرها سنة ٦٣٧ م . وفى أثناء إقامة الخليفة عمر بن الخطاب بالشام إستقر الرأى على غزو مصر ، عملا بنصيحة فئة قليلة من العارفين بالبلاد المصرية عن طريق التجارة قبل الإسلام ومنهم عثمان بن عفان وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، ولو لم يتجه قادة المسلمين بعد إنتصاراتهم هذه بالشام إلى فتح مصر لكان غريبا ، ولو تردد عمر بن الخطاب ترددا جديا فى ذلك الأمر لكان أغرب وأدهى ولتساءل المؤرخون حتى الآن عن سبب تلكؤ المسلمين فى الإستيلاء على مصر مادام – غرضهم إرهاق الدولة البيزنطية وإضعافها ، فضلًا عن أن الإستيلاء على مصر ضرورة حربية لتأمين الفتوح الإسلامية بالشام ، ولتأمين مدينة الرسول نفسها وهى مقر الخلافة فإنها قريبة من القلزم «السويس» ، ولا يبعد أن توجه الدولة البيزنطية إليها حملة من تلك الناحية إنتقاما لما حل بممتلكاتها بالشام .

وفى سنة ٦٣٩ م خرجت الحملة الإسلامية الموجهة إلى مصر سرا من قيسارية ، بقيادة عمرو بن العاص – وهو من أصحاب الخبرة الخاصة بمصر وجغرافيتها وديانتها وأحوالها الاجتماعية . فسارت تلك الحملة بإزاء ساحل البحر المتوسط حتى وصلت العريش الحالية فى أواخر السنة نفسها ، ثم تابع عمرو بن العاص السير حتى بلغ الفرما (موضعها قرب بورفؤاد الحالية) ، فلقى مقاومة من الحامية البيزنطية أوقفته شهرا حتى تغلب عليها فى أوائل سنة ٦٤٠ ، ثم واصل عمرو الزحف حتى وصل إلى بلبيس ، وهناك بعد حصار دام شهرا أيضا التقت الحملة الإسلامية بطلائع بيزنطية قادمة من بابليون ، وهى العاصمة الحربية البيزنطية بمصر وقتذاك . وانتصر عمرو على تلك الطلائع ، وانفتح له الطريق إلى رأس الدلتا وحصن بابليون نفسه . ومن ذلك وغيره فصاعدا يتضح تمام الوضوح أن الزحف العربى الإسلامى فى مصر لم يكن خبطة عشواء ، أو عملية قبلية همجية ، بل كان ذلك الزحف نتيجة تدبير سابق فى رأس قيادة بصيرة عارفة بمراكز المقاومة البيزنطية وجندية مدرعة بدين جديد .

وسار عمرو بعد بلبيس نحو مدينة هليوبوليس «المطرية الحالية» ، وهبط منها إلى مدينة حربية على ساحل النيل القديم إسمها أم دنين (مسجد أولاد عنان والأزبكية فى العصر الحاضر) ، حيث عسكرت حامية بيزنطية كبيرة وحوالى ذلك الوقت وصلت نجدات إسلامية من الشام ، فاستعان عمرو بن العاص بها على فتح تلك المدينة فى أواسط سنة ٦٤٠ وتقدم بعد ذلك إلى مدينة بابليون الحصينة فألقى عليها الحصار حتى وافقت حاميتها البيزنطية مؤقتا على التسليم له فى إبريل سنة ٦٤١ ، بعد مفاوضات جرت بينه وبين حاكم بيزنطى إسمه المقوقس فى المراجع العربية . وحمل المقوقس هذا نتيجة هذه المفاوضات إلى الإمبراطور هرقل بالقسطنطينية ، فغضب منه الإمبراطور ونفاه وتوفى هرقل فى فبراير من تلك السنة ، وكان خبر وفاته سببا من أسباب تسليم حصن بابليون نهائيا إلى المسلمين .

شرع عمرو بن العاص بعد ذلك فى الزحف على الإسكندرية ، ووقعت بينه وبين فرقة من الجنود البيزنطيين عند دمنهور الحالية وقعة إنتصر المسلمون فيها وتقدم عمرو بعدها إلى الإسكندرية ، فوصل اليها وشرع فى حصارها وبينما عمرو يكد فى الحصار وصل المقوقس الى الاسكندرية ، بعد أن استدعاه الإمبراطور الجديد من منفاه ، وأوفده مزودا بالسلطة التامة لمفاوضة المسلمين ، فقام بمفاوضات مع عمرو بن العاص إنتهت بتسليم الإسكندرية وبمعاهدة تعرف بمعاهدة بابليون ، وتم التوقيع على هذه المعاهدة فى نوفمبر سنة ٦٤١ ، وانجلت الجنود البيزنطية بعد ذلك عن الإسكندرية ، ويبدو من شروط تلك المعاهدة أنها كانت مقصورة على إقليم الإسكندرية وغربى الدلتا ، كما يبدو من تلك الشروط أن مراكز عسكرية بيزنطية مبعثرة فى طول البلاد المصرية وعرضها ظلت عازمة على المقاومة ضد المسلمين الفاتحين ، بدليل أن عمرو بن العاص شرع بعد ذلك فى الإستيلاء على تلك المراكز البيزنطية مثل إخنا وبلهيب وسخا والبرلس ودمياط وشطا وطوخ ورمسيس ، ثم أرسل عمرو بن العاص فرقة من جيشه للإستيلاء على المدن الكبرى بالوجه القبلى إلى حدود إقليم طيبة ، أى حتى قرب مدينة الأقصر الحالية .

وكان موقف المصريين الأقباط من تلك الحوادث فى أول الأمر وسطا بين الحياد والترحيب بالفاتحين ، ولم يكن من المنتظر ان يحددوا موقفهم تمام التحديد وزعيمهم البطريق بنيامين غائب عنهم بسبب إختفائه بعيدا عن بطش البيزنطيين ، فلما ظهر بنيامين بأمان عمرو بن العاص سنة ٦٤٤ ، ونصح قومه بمصادقة الفاتحين الذين برهنوا على أنهم لا يتعرضون للدين بسوء ، رحب القبط بالعرب ترحيبا علنيا وساعدوهم مساعدة جدية حينما إستردت الدولة البيزنطية مدينة الإسكندرية وإقليمها من المسلمين هنيهة سنة ٦٤٥ ، وكان لتلك المساعدة فضل كبير فى إجلاء الجيوش البيزنطية نهائيا عن مصر . وكان عمرو بن العاص قد رحل عن مصر قبل ذلك التاريخ بأربع سنين ، إذ عزله الخليفة عثمان بن عفان عن ولايتها ، وأقام مكانه عبد الله بن سعد بن أبى سرح وهو أخو الخليفة من الرضاع ، فلما هاجمت الجيوش البيزنطية مدينة الإسكندرية وأوغلت فى إقليمها حتى أطراف الدلتا أرسل الخليفة عمرو لإنقاذ الموقف ، وتم على يده إخراج البيزنطيين . ثم رجع عمرو إلى مكة وشهد حوادث مقتل الخليفة عثمان ، وقيام على بن ابى طالب فى الخلافة واشترك فى الثورة التى قامت ضد الخليفة على وناصر معاويه بن ابى سفيان بكل مالديه من دهاء وقوة ، جاء ، إلى مصر سنة ٦٥٨ وأخضعها لحكم معاوية ، وكان إخضاعه لها مؤذنا برجحان كفة الأمويين وتأسيس دولتهم فى دمشق . وكافأه الخليفة الأموى معاوية على خدماته بأن منحه وادى النيل طعمة ، أى ولاية خاصة ، يكون دخلها كله له بعد إستيفاء عطاء الجند ونفقة الإدارة ، فبقى بمصر على تلك الحال سنة واحدة وتوفى سنة ٦٦٤ وقد ناهز السبعين . وقبل ذلك بسنتين تماما مات البطل الثانى فى تاريخ إتمام الفتح العربى لمصر وهو البطريق بنيامين ، الذى وفق بين العرب والقبط ، وسهل على الفاتحين كثيرا من الصعوبات التى كان لا محيص لهم من أن يتعثروا بها فى أول عهدهم بمصر .

وفى أثناء ولايته الأولى والثانية والثالثة قام عمرو بن العاص بتشييد كثير من المنشآت بمصر ، ومنها بناء مدينة الفسطاط على الشاطىء الأيمن للنيل قرب حصن بابليون واتخاذها عاصمة لمصر الإسلامية بدلا من الإسكندرية البيزنطية ، ومنها تخطيط جامعه المشهور ، وهو الجامع العتيق الذى لا يزال باقيا حتى العصر الحاضر بالفسطاط ، ومنها إنشاء الجيزة على الشاطىء الأيسر للنيل لاجتياز القادمين إلى ساحل الفسطاط من الصعيد ، ومنها إصلاح قناة نخاو الفرعونية القديمة بين رأس دلتا النيل وبحر القلزم « خليج السويس والبحر الأحمر» لضمان المواصلات البحرية بين الفسطاط وبلاد العرب وجنوب فلسطين ، ولنقل كميات من الغلال المصرية الى العاصمة الإسلامية الكبرى بالمدينة المنورة ، ومنها كذلك تطهير الترع النيلية التى يتوقف عليها الرى والزرع لكثير من أرض مصر وبخاصة بالوجه البحرى . واستطاع عمرو بن العاص أن ينهض بتلك المنشآت الداخلية العامة بفضل ما تجمع لدية من جبايات ضرائبية إزدادت حصيلتها سنة بعد أخرى ، كما استطاع أن يرسل أموالا وغلالا سنوية إلى المدينة المنورة وأن يرد إغارة بيزنطية عن مدينة الإسكندرية وغرب الدلتا بجيش عربى كبير ، وذلك سنة ٦٤٥ . وبفضل تلك الأموال كذلك إستطاع عبد الله بن أبى سرح وهو والى مصر بعد عمرو بن العاص أن يقوم سنة ٦٥٢ بحملة حربية لتأمين أطراف مصر الجنوبية ضد قبائل الكنوز النوبية ، وهى القبائل التى سماها قدماء المصريين بذلك الإسم فى لغتهم إشارة إلى مهارة رجال تلك القبائل فى الرمى على عيون أعدائهم بالسهام ، وسماها إبن عبد الحكم لذلك باسم رماة الحدق ، وهذه التسمية المصرية القديمة هى أصل لفظ الكنوز الذى يطلقه مؤرخو مصر للعصور الوسطى على القبائل الأسوانية المشهورة .

استقرت مصر بعد ذلك ولاية إسلامية عربية تابعة للخلافة الصحابية بالمدينة المنورة ثم للخلفاء الأمويين بدمشق ، ثم للعباسين ببغداد ، وتبوأت الولاية المصرية مكانا ممتازا بين ولايات الدولة الإسلامية كما كان شأنها بعد الفتح الرومانى لأسباب لا تختلف كثيرا عن تلك التى حدت بأغسطس قيصر أن يجعلها ذات

مركز ممتاز بين ولايات الدولة الرومانية القديمة ، فأرسل ولاتها المسلمون من الغلال سنويا إلى المدينة كما كان يرسلها الولاة الرومان من قبلهم إلى روما ثم القسطنطينية لاطعام الشعب من سكان هاتين العاصمتين القديمتين ، وفى هذا دليل على أن العرب كانوا يعرفون أهمية مصر جيد المعرفة قبل أن يقدموا على فتحها ، ثم إن مصر لم تلبث أن أصبحت فى أوائل العهد الإسلامى قاعدة حربية نفذت منها الجيوش الإسلامية إلى شمال أفريقيا والنوبة وغيرهما من البلاد التى إمتدت إليها الفتوح الإسلامية التكميلية ، ومما يدل على أهمية مصر من دون الولايات الإسلامية الأخرى أن الخلفاء الأمويين كانوا يولون عليها غالبا من أبناء البيت الأموى ، وأن مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين إختارها ليعتصم بها من ثورة العباسيين ، وأن الخلفاء العباسيين أنفسهم كانوا يعطونها لأولياء عهودهم .

وظلت تبعية مصر للخلافة الإسلامية أمرا فعليا زهاء قرنين ونصف قرن من الزمان وتوالى عليها فى أثناء تلك المدة ثمانية وتسعون واليا ، وكل أولئك من العرب مادامت الدولة الإسلامية عربية خالصة ، ومن أشهرهم فى عهد الخلافة الأموية عبد العزيز بن مروان (٦٨٥ – ٧٠٥) أخو الخليفة عبد الملك بن مروان ، وكان عبد العزيز يحكم مصر من مقره بحلوان كأنه ملك مستقل ، لا يكاد يكون للخلافة فى دمشق عليه أى سلطان . ومن أشهرهم فى العصر العباسى السرى بن الحكم (٨١٦ – ٨٢٠) الذى حاول أن تكون ولاية مصر إرثا فى بيته ، ونجح فى ذلك بتولية ولديه محمد وعبيد الله من بعده حتى سنة ٨٢٦ م وبعبارة أخرى يُعد السرى بن الحكم أول من طمع فى الإستئثار بمصر والإستقلال بها عن الخلافة العباسية .

وحدث أن انتقلت مقاليد السلطة فى الخلافة العباسية إلى أيدى العناصر العسكرية من الترك المسلمين الذين إستكثر الخليفة المعتصم منهم فى الجيش الإسلامى العام والحرس الخليفى الخاص ، وبنى لهم الخليفة من أجل هذا وذاك مدينة قريبة من بغداد على أنقاض سامرا القديمة ، ولذا سميت هذه المدينة من باب التعريب باسم سرمن رأى . غير أن تلك العناصر العسكرية التركية تطاولت فيما تطاولت إلى مناصب الولاية فى مختلف الولايات الإسلامية القريبة والبعيدة ، وبذا إنتهى عصر الولاة من العرب على مصر وغيرها من الولايات ، وكان آخرهم فى مصر عنبسة بن إسحاق (٨٥٢ – ٨٥٦) ، كما إنتهى عموما عهد الولاة العارفين بشئون الإدارة والحكم فى مختلف الولايات بفضل تقلبهم فى مختلف المناصب الإدارية وافتتح عهد جديد من الولاة الترك العسكريين الذين لم يعرفوا عن خصائص ولاياتهم المختلفة سوى ما سمعوه عنها فى ثكنات سر من رأى ، وأولهم فى مصر يزيد بن عبد الله التركى (٨٥٦ – ٨٦٧) وظل الحال على ذلك المنوال حتى جاء إلى مصر وال تركى من نوع غير المعتاد ، وهو أحمد بن طولون الذى لم يلبث أن استقل بولايته المصرية عن الخلافة العباسية سنة ٨٦٨ م وانقضى بذلك ماهو معروف فى تاريخ مصر الإسلامية باسم عهد الولاة من العرب ثم الأتراك ، وهو عهد مدته مائتان وخمس وعشرون سنة ، وليس فيه لسلسلة الولاة من الترك سوى عشر سنين .

وفى ذلك العهد الأول من تارخ مصر الإسلامية أبقى الفاتحون فى أوائل أيامهم بمصر على جميع ما وجدوه بها من وظائف الحكم والإدارة والمالية البيزنطية ولم يضيفوا إليها جديدا ، ولم يكن باستطاعتهم أن يفعلوا غير ذلك ، وهم فى مرحلة الفتح والحرب من تاريخهم . غير أنهم ألغوا عددا من الوظائف التنفيذية البيزنطية الكبرى وأحلوا محلها وظائف ذوات أسماء عربية ومسئوليات مباشرة للخليفة أمير المؤمنين فى المدينة أو دمشق أو بغداد . وأول تلك الوظائف التنفيذية العربية الجديدة وظيفة الوالى واسم صاحبها فى المصادر العربية كذلك أمير الصلاة لأنه كان يؤم الناس فى الصلاة الجامعة أحيانا غير قليلة نيابة عن أمير المؤمنين . وكان الوالى يعين بأمر الخليفة كما كان يعين بأمره صاحب الوظيفة الثانية الكبرى من تلك الوظائف وهو والى الخراج ، وكان بيده جميع الأمور المالية من إيرادات ومصروفات داخلية وأموال سنوية لبيت المال الخليفى ، واجتمعت هاتان الوظيفتان التنفيذيتان الأولى والثانية فى شخص واحد بعض الأحيان .

أما الوظيفة الثالثة فهى القضاء ، وكان التعيين عليها بيد الخليفة كذلك ، وليس للوالى العام على متوليها أى سلطان مباشر أو غير مباشر ، لأن القاضى إستمد أحكامه فى الأقضية من أحكام القرآن والسنة .

وفى العصر العباسى جدت فى الجهاز الإدارى الإسلامى فى مصر وغيرها من الولايات الإسلامية وظيفة تنفيذية رابعة لضبط شئون البريد الخليفى ، وإسم متوليها صاحب البريد ، وترجع أصولها إلى أيام الرومان والبيزنطيين ، وكان صاحبها مستقلا بشئونه أيضا عن الوالى العام فى مصر وغيرها من الولايات لأن عمله إقتضى مراقبة أحوال الولاية عامة ، وإحاطة الخليفة بما يجرى فيها من حوادث . ثم جدت كذلك وظيفة والى الشرطة الذى كان يسمى باسم صاحب الحرب ، لأن وظيفته لم تقتصر عل شئون الأمن الداخلى فحسب بل إمتدت إلى الرئاسة على الجيش الخاص بالولاية .

وفيما عدا تلك الوظائف التنفيذية الخمس التى كان متولوها ومساعدوهم المباشرون من العرب الفاتحين ، إمتلأت وظائف الحكم والإدارة والمالية فى الفسطاط وسائر المدن المصرية بأعداد كبيرة من البيزنطيين والأقباط أهل البلاد الأصليين فضلا عن البيزنطيين الذين بقوا بالبلاد المصرية لسبب أو آخر بعد فتحها . وكانت اللغة العربية بين أولئك وهؤلاء لسانا جديدا مقصورا على الفاتحين وجنودهم وأهليهم . ومن دلائل ذلك صدور كثير من الأوامر الرسمية مكتوبة باللغتين العربية واليونانية ، أو باللغتين العربية والقبطية ، وبقاء أسماء عدد من الوظائف الإدارية بمعناها البيزنطى ومعناها المعرب حتى أواسط القرن الثامن الميلادى ، أى حتى بعد مائة سنة تقريبا من تاريخ الفتح ، ومنها لفظ كورة وهى أصل لفظ قرية فى اللغة العربية ، ومعناها إقليم إدارى فى المصطلح البيزنطى والعربى المصرى ، ومنها كذلك أوجسطل أى النائب الإمبراطورى بالإسكندرية البيزنطية والحاكم العربى بها بعد ذلك . ثم لفظ دوقس ومعناها الأصلى رئيس الجيش البيزنطى فى مصر واستعمله العرب أحيانا للدلالة على قائد الجيش الخاص بالولاية ، وماجستروس أى الحاكم الإقليمى وأسمه المازوت فى أوراق البردى العربية .

وأبقى العرب فى مصر كذلك على نظم الضرائب البيزنطية وجهاز تحصيلها لكنهم كانوا أخف وطأة من ذى قبل ، لا لأنهم جبوا أقل مما جبى البيزنطيون بل لانهم أبطلوا بعض الضرائب التى أحدثتها الدولة البيزنطية لسد العجز المالى الناشىء عن سابق حروب الإمبراطوريين جستنيان وهرقل ، على حين أزالوا كثيرا من الإمتيازات والإعفاءات المالية التى تمتع بها المستوطنون البيزنطيون ولا سيما بالإسكندرية ، كما جعلوا الجزية على الأشخاص مدرجة حسب المقدرة المالية مع إعفاء الشيوخ والعجزة والنساء والأطفال والرهبان ، مع ربط قيمة الخراج بأحوال ماء النيل ، وكل ذلك فضلا عن الخلو العام من إضطهاد الأقباط فى معتقداتهم الدينية على خلاف ما اشتهر به العهد البيزنطى ، ولا سيما زمن الإمبراطور هرقل .

والواقع أن الأقباط أحسوا بأن الولاة العرب لم يتعرضوا لأمور المسيحية وكنيستها بخير أو شر . وبلغ من حياد عمرو بن العاص مثلا أن الأقباط أصحاب المذهب المونوفيزيتى أرادوا أن يستعدوه على المذهب الملكانى وأهله من بقايا المستوطنين البيزنطيين وغيرهم من المصريين ، فرفض عمرو أن يقوم بذلك الدور ، وبقى كل من المذهبين المسيحيين جنبا إلى جنب يظلهما الولاة العرب واحدا بعد الآخر بذمتهم وحمايتهم وتسامحهم الدينى المشهور . وأنصع دليل على ذلك ما هو معروف بين كثير من المشتغلين بتاريخ الكنيسة القبطية من قيام نهضة ثقافية قبطية واضحة المعالم فى المؤلفات الدينية والفن القبطى لعدة قرون منذ الفتح الإسلامى لمصر . غير أنه على الرغم من سياسة التسامح الرشيدة التى التزمها معظم الولاة المسلمين فى مصر أسلمت أعداد كبيرة من القبط منذ أوائل الحكم العربى ، وسواء أكان ذلك طمعا فى المساواة بالمسلمين ، أو رغبة فى الفرار من الجزية المقررة على أهل الذمة ، أو حبا فى اعتناق دين السلطة الحاكمة ظلت تلك الأعداد تتزايد كلما تقادم العهد الإسلامى فى مصر بل أنها إحتوت على أفراد من زبدة المجتمع القبطى المثقف وقتذاك ، ومنهم جبر بن عبد الله القبطى المتوفى سنة ٦٣ هـ ، وورش القبطى المتوفى سنة ٢٧١ هـ ، وهو فقيه شافعى ومن أصحاب الإمام الشافعى فى حياته .

وعمل الولاة العرب من ناحيتهم على صبغ مصر بصبغة عربية إسلامية فشجعوا هجرة القبائل العربية إليها من الحجاز والشام ومنها عرب القيسية التى نزلت بالحوف الشرقى «محافظة الشرقية الحالية» فى العصر الأموى . على أن تلك القبائل العربية كانت منبع متاعب وثورات أحيانا وشارك الأقباط فى بعض تلك

الثورات التى كان آخرها وأشدها خطرا ما حدث من ثورة زمن الخليفة المأمون ، ومن أجل تلك الثورة حضر المأمون بنفسه إلى مصر ، فكان أول من زارها من خلفاء العباسيين ، وأجهز على الثائرين من الأقباط والعرب ، وخشى كثير من الأقباط على أنفسهم ، وأقبلوا على إعتناق الإسلام أفواجا ، ومن ذلك الوقت يبتدىء إزدياد عدد المسلمين عن عدد الأقباط فى مصر .

ظلت الفسطاط التى أسسها عمرو بن العاص عاصمة للولاية المصرية ومقراً للحكم حتى آخر العصر الأموى ثم أمر الخليفة السفاح أول العباسيين بإنشاء ضاحية العسكر لتكون عاصمة جديدة فى موضع إسمه الحمراء القصوى بالجهه الشمالية الشرقية من الفسطاط . وكانت بعض القبائل العربية النازلة به تسميه باسم العسكر فاتخذ العباسيون تلك التسمية للعاصمة الجديدة . ومما اتصف به العصر العباسى إزدياد عدد الداخلين فى الإسلام من القبط ، لا نتيجة لإمعان الخليفة المأمون فى إخماد الثورة العربية القبطية المشتركة بل لأن إقامة معظم الولاة العباسيين فى مصر كانت فى القصر بحيث صار الهدف الأول لدى أكثرهم أن يجمع لنفسه ثروة كبيرة من أقصر الطرق وأسرعها ، فكانوا يفرضون الضرائب غير العادية والمكوس ويحصلون منها على الأموال بأية وسيلة ، ولم يجد كثير من القبط خلاصا من تلك الحال سوى اعتناق الإسلام ، ونتج عن ذلك أنه لم يمض قرنان على فتح العرب مصر حتى غيرت أغلبية القبط ما بها واندمجت إندماجا يكاد يكون كليا فى جسم الدولة الفاتحة وأصبحت جزءا منها ، وحل الإسلام كما حلت اللغة العربية المحل الأول فى أنحاء البلاد المصرية حتى أنه عندما قامت الدولة الطولونية فى منتصف القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) كان فى مصر أمة إسلامية ساعدت بروحها القومية على تحقيق أمانى أحمد بن طولون فى الإستقلال بمصر عن الخلافة العباسية .

مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين :

ووجد أحمد بن طولون عند وصوله إلى مصر رجلا ذا شخصية واسعة النفوذ فى دوائر الحكم ، وهو أحمد بن المدبر صاحب الخراج والشئون المالية وأثرى ذلك الرجل ثراء عظيما من وراء ابتزاز الأموال بمختلف الضرائب التى ابتدعها واستحدثها ، فلم يكن من المنتظر أن تتفق أغراضه مع أطماع الوالى الجديد فى الإستقلال بمصر بل عمل كل منهما على إخراج صاحبه من البلاد المصرية واستطاع أحمد بن طولون بفضل ماعكف على إرساله من هدايا مصرية إلى بغداد أن يحوز رضى الخليفة المعتمد وأخيه الموفق طلحة ، وهو وقتذاك صاحب السلطة الكبيرة فى شئون الخلافة الداخلية والخارجية . وبتلك الهدايا إستطاع أحمد ابن طولون أن يتغلب على أكبر منافس له فى مصر وهو أحمد بن المدبر ، ولا سيما عندما أمر الخليفة المعتمد بنقل إبن المدبر من وظيفة الخراج بمصر إلى مثل تلك الوظيفة بالشام .

وهكذا خلا الجو لأحمد بن طولون فى البلاد المصرية ، ولم يلبث أن أخذ يفكر فى تكوين جيش لنفسه ، وفى بناء عاصمة جديدة تأوى ذلك الجيش ، كما فعل الخليفة المعتصم من قبل حينابنى سامرا لجيشه التركى ، واختار إبن طولون لذلك مساحة فضاء يوجد بها الآن أحياء قره ميدان والمنشية وميدان صلاح الدين والصليبة . فبنى لنفسه قصرا جعل أمامه ميدانا فسيحا للعب الصوالجة ، ثم اختط الأراضى المحيطة بذلك الميدان ، وأقطع كل فرقة من فرق الجند ، ومن احتاج إليهم الجند من صناع وتجار ، قطيعة من تلك الأراضى فصارت كل قطيعة خاصة بأفراد الفرقة الحربية الواحدة ، أو ابناء الصناعة الواحدة ، فكانت هناك قطيعة الروم وقطيعة الأتراك وقطيعة السودان ، وقطيعة الخبازين وقطيعة الجزارين ، وسميت المدينة الجديدة باسم القطائع .

وبنى أحمد بن طولون جامعة المشهور فى وسط تلك العاصمة الجديدة وبدأ فى بنائه سنة ٨٧٦ على طراز جامع مدينة سامرا ، كما إختط القطائع نفسها على نمط تلك المدينة العراقية التى عاش بها معظم أيام شبابه ، ثم ألحق إبن طولون بالجامع الطولونى مستشفى لعلاج المرضى بالمجان ، فكان الأول من نوعه فى مصر الإسلامية ، كما أنه بنى قناطر مرفوعة لتوصيل الماء من عيون إرتوازية بناحية البساتين الحالية قرب

الإمام الشافعى إلى القصر الطولونى بالقطائع ، وقام أحمد بن طولون فضلا عن ذلك بما ينتظر من أمير يريد أن يستقل بمصر ، وأن يؤسس لذلك الإستقلال فى قلوب الناس من أصحاب الأراضى والفلاحين والتجار والصناع ، فأصلح مقياس النيل بالروضة ، وطهر الخليج الذى يربط الإسكندرية بالنيل ، وعمر منارة الإسكندرية أيضا ، وبذا ضبط إبن طولون شئون الرى والزراعة ، وأصلح أهم سبل المواصلات للتجارة المصرية الداخلية ، واستغرقت هذه الأعمال البنائية مدة طويلة ونفقات مالية كثيرة ، فجعل إبن طولون من تلك النفقات سببا فى إيقاف إرسال الأموال السنوية المعتادة إلى بغداد ، وبذا رجح لدى الخليفة المعتمد ماكان يقال همسا فى القصر الخليفى العباسى عن مطالب إبن طولون وأطماعه فى الإستقلال بمصر ، مع إستعداده لارسال الأموال السنوية . ويبدو أن الخليفة المعتمد لم ير مناصا من الرضا بتلك الحركة الإستقلالية فى مصر ، والإتفاق مع إبن طولون على عكس أخيه الموفق طلحة الذى أعد سنة ٧٧٨ جيشا عباسيا لإخراج إبن طولون من البلاد المصرية ، لاجريا وراء مصلحة خليفية عامة ، بل حرصا منه على التدخل فى شئون الخليفة ، فضلا عن كرهه الشخصى لأحمد بن طولون . غير أن عجز ذلك الجيش العباسى عن السير لقلة المال اللازم لنفقات الجند وحاجاتهم شجع أحمد بن طولون أخيرا على إعلان إستقلاله بمصر عن الخلافة العباسية . وإنتهز إبن طولون فرصة وفاة والى الشام وقتذاك ، وزحف بجيشه الجديد حتى وصل إلى دمشق ، ولم تلبث العاصمة الشامية أن فتحت له أبوابها طائعة مختارة . وفى دمشق التقى إبن طولون مرة أخرى بغريمه القديم ، وهو أحمد بن المدبر ، واستولى منه على مبلغ عظيم من المال . ثم سار إبن طولون من دمشق شمالا حتى وصل حلب دون قتال ، وتقدم منها إلى قرب مدينة طرسوس التى عرفها سابقا أيام تعليمه الأول ، وإتجه منها شرقا نحو أراضى الخلافة العباسية شمال العراق ، حيث إستولى على مدينة الرقة على نهر الفرات .

أصبح أحمد بن طولون بعد ذلك خطرا على الخلافة العباسية نفسها ، وحاول وقتئذ أن يستغل مابين الخليفة المعتمد وأخيه الموفق طلحة من الجفاء ، وأن يجتذب الخلافة إلى مصر ليحيط ملكه بنفوذها . فدل بذلك على إيمانه بأن مصر تستطيع أن تصبح مركزا للخلافة العباسية ، وبأن القطائع تصلح أن تكون مقرا للبلاط الخليفى ، وأن تحل محل سامرا أو بغداد نفسها ، ولو إلى حين . غير أن مشروعه لم يتحقق ، فبقى المعتمد فى بغداد حيث هو ، وعمل الموفق طلحة على مصالحة إبن طولون والإتفاق معه على حل يحفظ حقوق الطرفين ، غير أن مرضاً أصاب إبن طولون قبل أن يتم شيء من ذلك فرجع سريعا إلى مصر حيث توفى سنة ٨٨٤ .

وخلف أحمد بن طولون فى مصر إبنه الثانى خمارويه (٨٨٤ – ٨٩٥) وكان حديث السن لم يناهز العشرين ، ويبدو للمحيطين به قليل المعرفة بشئون الحرب والسياسة ، كثير الميل إلى حياة الترف والدعة ، وظن الخليفة العباسى أن الدولة الطولونية إنتهت بوفاة مؤسسها ، لكن خمارويه لم يلبث أن خيب ذلك الظن ، اذ نفض عن نفسه ماألتهم به من صفات ، وبدا قائداً حربيا نشطا ، وسياسيا على جانب غير قليل من الجرأة ، فأرغم بإنتصاراته بالشام جيوش الخلافة العباسية على مسالمته وعقد سنة ٨٨٦ معاهدة إعترف الخليفة العباسى فيها بإستقلال خمارويه وإعقابه لمدة ثلاثين سنة من بعده بمصر والشام والفتوحات الطولونية بآسيا الصغرى وأعالى الفرات ، على أن يؤدى الطولونيون للخلافة العباسية جزية سنوية مقدارها ثلاثمائة ألف دينار .

وتوفى الخليفة المعتمد سنة ٨٩١ م ولحقه أخوه الموفق طلحة فى السنة التالية فكان ذلك إيذانا بتحسين العلاقات بين الخلافة العباسية وبنى طولون ، وتزوج الخليفة الجديد وهو المعتمد بن الموفق طلحة بالأميرة قطر الندى إبنة خمارويه ، وجدد معاهدة سنة ٨٨٦ ، وحلا للأمير خمارويه أن يظهر وقتذاك مدى ثروة البيت الطولونى فى مصر ، فجهز إبنته إلى عريسها بما لم تجهز به عروس من قبل على قول المؤرخين ، وشيدت لها عمتها العباسة بنت أحمد بن طولون محطة لتستريح عندها فى طريق سفرها إلى بغداد وهذه المحطة هى بلدة العباسة قرب مدينة الصالحية الحالية ، وإنطلقت الأفراح والليالى الملاح بمدينة القطائع ، قبل سفر الأميرة قطر الندى إلى زوجها المعتضد ، ولاتزال أغانى ذلك الزواج من الأغانى الشعبية بمصر .

وأحب خمارويه العمارة والبناء حبا جما كأبيه ، فأضاف إلى القصر الطولونى ووسعه ببناء قاعة الذهب المشهورة ، وزين تلك القلعة بصورته وسط أزواجه وجواريه ومغانيه ، وحول الميدان الطولونى إلى حديقة للنزهة فيها من كل فاكهة وأنواع الشجر ، وجعل بها بيتا للطيور المغردة ، وإستنزف ذلك وغيره خزائن الدولة إستنزافا كان ذاتأثير سريع فى مصائر الطولونيين ، إذمات خمارويه مقتولا سنة ٨٩٦ م وعاشت الدولة الطولونية بعده تسع سنوات فقط ، تنازع كرسى الامارة فى أثنائها إثنان من أولاده ، وإثنان من إخوته ، وعمل القادة الأتراك فى خلال ذلك على الإستئثار بالسلطة والنفوذ ، فازداد الفقر وإشتدت الضائقة الإقتصادية بالبلاد . وبسبب ذلك كله عجزت الدولة الطولونية عن حماية ممتلكاتها الخارجية بالشام والبلاد الفراتية ، فانتقلت تلك الممتلكات لدولة جديدة إسمها دولة القرامطة ، وتدخلت الخلافة العباسية تريد إرجاع الأمر فى مصر والشام إلى مسيرته الأولى من التبعية لبغداد ، وإستطاع القائد محمد بن سليمان الكاتب أن يدخل مصر على رأس جيش عباسى منتصر ، وبرفقته الوالى الطولونى بالشام ، وإسمه طغج الإخشيد ، وهدم القائد العباسى سنة ٩٠٥ مدينة القطائع وأحياءها ، ماعدا الجامع الكبير والقناطر المرفوعة ، ولعل هذا هو السبب فى قلة الآثار الباقية لنا من أيام الطولونيين .

ثم قفل جيش الخلافة العباسية بعد ذلك راجعا إلى بغداد ، ومعه من كان حيا من بيت أحمد ابن طولون ، وعادت مصر إلى الخلافة العباسية والولاة العسكريين من الترك مرة أخرى ، وكان نفوذ الأمراء الأتراك بالغا أقصاه وقتذاك حتى صار الخلفاء أنفسهم رهن مشيئة أولئك الأمراء وأهوائهم ، وأمتدت السنوات التى ظلت مصر فى أثنائها ولاية تابعة للخلافة العباسية ثلاثين سنة (٩٠٥ — ٩٣٥) وتوالى على مصر فى تلك الأثناء أربعة عشر واليا تركيا ، بمعدل سنتين تقريبا لكل منهم وفى هذا فقط مايكفى للدلالة على أحوال مصر المضطربة فى تلك السنوات ، وليس أدل على مدى ماأغرقت فيه مصر من الإضطراب وقتذاك من إستطاعة شاب من عامة المصريين إسمه الخالنجى أن يجمع عددا من المصريين المقيمين بفلسطين ، وأن يعيد السيادة الطولونية هناك بمعاونتهم ، وأن يدخل مصر ويتحكم فى شئونها بإسم الطولونيين مدة ثمانية أشهر ، قبض عليه فى آخرها ، وأرسل مقبوضا عليه إلى بغداد حيث أعدم . تلك حادثة واحدة من كثير من الحوادث الدالة على ماوصلت إليه أحوال مصر الداخلية . وكان الحاح دولة القرامطة على الأطراف المصرية الشرقية وقيام الدولة الفاطمية بأفريقيا على مقربة من أطرافها الغربية ، ووصول غزوات من هاتين الناحيتين إلى بعض الثغور المصرية مازاد الإضطراب الداخلى خيالا .

وممن شهد تلك الحوادث بمصر القائد التركى محمد بن طغج الإخشيد الذى كان أبوه طغج ممن خرج على الدولة الطولونية وعمل على هدمها ، وكان محمد بن طغج الإخشيد هذا واليا على الشام سنة ٩٣٠ من لدن الخلافة العباسية ثم أعقب ذلك تعيينه واليا على مصر أيضا سنة ٩٣٣ ، مع بقاء ولاية الشام فى يده فجاء إلى مصر حتى سنة ٩٣٥ ، حيث وضع حجر الأساس لدولة شاملة لمصر والشام ، وهو بذلك مؤسس الدولة الإخشيدية كما كان أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية ، وهو معيد الطمأنينة إلى البلدين لعدة سنوات تقرب فى عددها من عمر الدولة الطولونية .

وكانت الخلافة العباسية حين ذاك قد خسرت كل نفوذها السياسى فى بغداد والولايات القريبة والبعيدة ، حيث إستقل كل وال بما لديه ، فكان بنوبويه فى فارس ، وبنو حمدان فى العراق ، وبنو سامان فى جهات ماوراء النهر ، وفى بغداد نفسها كان الأمراء الأتراك يلعبون بالخلفاء لعب الكرة ، ومن أولئك الأمير التركى محمد بن رائق . ولذا لم يكن هناك ثمة مايخشاه الإخشيد أو غيره من الخليفة ، بل كان مايخشاه الإخشيد آتيا على سبيل المثال من ناحية ولاة الأقاليم المستقلة وأمراء بغداد وعلى رأسهم محمد بن رائق الذى اغار بنفسه فجأة على الشام ، وإستولى إبن رائق على دمشق سنة ٩٤٠ ، وتقدم بعد ذلك نحو الأطراف المصرية حتى العريش كأنما أراد الإستيلاء على مصر . لكن الإخشيد إستطاع أن يوقع به الهزيمة ، وأن يحصل منه على صلح خلاصته أن تكون الشام شمالى الرملة لإبن رائق وأن يكون ماعدا ذلك من البلاد الجنوبية للإخشيد مقابل جزية سنوية يؤديها الإخشيد لإبن رائق ، ثم إسترد الإخشيد ذلك القسم الشمالى من الشام

بعد وفاة إبن رائق سنة ٩٤٢ . وكان الخليفة العباسى حينذاك هو (المتقى) ، ورأى هذا الخليفة أن يشد من أزر الإخشيد ليجعل منه أداة يستعين بها ضد أمراء بغداد وولاة الأقاليم المستقلين ، فأضاف الى ولاية الإخشيد على مصر والشام ولاية مكة والمدينة سنة ٩٤٣ ، وجعل مصر وراثية له ولأبنائه مدة ثلاثين سنة . ثم أرسل المتقى الى الإخشيد يطلب نجدته ، وخرج من بغداد يريد الاتصال به فى بلد من بلاد أعالى الفرات ، فذهب الإخشيد لمقابلته والتقى به عند مدينة الرقة سنة ٩٤٤ ، وعرض عليه الاقامة فى الشام أو مصر لغرض مشابه لسابق غرض أحمد بن طولون ولكن (المتقى) خاف بطش أمراء بغداد فرفض المجىء إلى مصر كما رفض قبول جيش وضعه الإخشيد تحت تصرفه ، على أنه قبل أن يأخذ منه مبلغا من المال .

ولم يكن الخطر قد زال عن دولة الإخشيد بوفاة إبن رائق ، فان جيش الحمدانيين أصحاب العراق الشمالى أغار وقتذاك على الشام سنة ٩٤٥ وإستولى على دمشق بعد أن هزم جيشا إخشيديا بقيادة الطواشى كافور الحبشى . وخف الإخشيد بنفسه لمقابلة ذلك الخطر الذى أحدق بمعظم البلاد الشامية ، والحق بجيش الحمدانيين هزيمة عند قنسرين وإسترد بذلك دمشق وغيرها من البلاد الشامية الشمالية . وعلى الرغم من ذلك الإنتصار رأى الإخشيد مصالحة الحمدانيين ، وتنازل لهم عن شمال الشام بما فى ذلك حلب ، ورضى بأن يدفع لهم مقابل مالديه من البلاد الشامية الجنوبية جزية سنوية . ويظهر أن الإخشيد رأى وقتذاك أنه لن يستطيع النهوض بما تتطلبه السيادة على الشام كله من يقظة وجهد حربى ، ففضل مناصفة الحمدانيين فى حكمه ومات بعد ذلك بقليل بمدينة دمشق سنة ٩٤٦ ، ودفن بمدينة بيت المقدس حيث دفن جميع أعقابه من بعده .

وأول أولئك الأعقاب أنوجور بن الإخشيد (٩٤٦ – ٩٦٠) ثم على بن الإخشيد (٩٦٠ – ٩٦٦) وسواء أكان فى هذين الولدين شيء من قدرة أو صلاحية للحكم أم لم يكن ، فانه لم تتح لأحدهما أية فرصة لإظهار حقيقة طاقته ، إذ تركزت السلطة الفعلية فى أيامهما بيد الطواشى كافور الحبشى الذى وكل اليه الإخشيد سابقا تربيتهما الأولى وجعله أستاذهما أيام طفولتهما . ولذا قنع كل من هذين الأميرين بدوره بما رتبه لهما ذلك الأستاذ من المال فى ظلاله ، ورضيا بحياة الدعة فى القصر الإخشيدى . ثم صار كافور سيد الدولة الإخشيدية وتوابعها بعد وفاة على بن الإخشيد سنة ٩٦٦ ، ووافقت الخلافة العباسية على توليه بشرط أن يظل حاملا للقب أستاذ فقط . غير أن ذلك الحبشى الماكر لم يلبث أن انقلب بعد إستئثاره رسميا بالسلطة الى أمير محب للأبهة والفخامة والسلطان ، وحلاله أن يخرج بين فينة وأخرى فى موكب عظيم للنزهة فى بستان أنشأه محمد الإخشيد بأرض اللوق الحالية وأتم هو تنسيقه ، وأطلق عليه إسمه ، أى البستان الكافورى ، كما حرص أن يعرف عنه أنه أديب يحب الأدباء والشعراء والعلماء ، وهذا على الرغم من خلوه من أى تعليم أو ثقافة ، ودعا كافور إلى حضرته المشتغلين بالتاريخ ليسامروه فى تاريخ الرسول والخلفاء الصحابيين والدولة العربية الأولى واجتذب الشعراء وأهل الموسيقى الى بلاطه ، ومن أولئك الشاعر أبو الطيب أحمد المتنبيء الذى نظم القصائد الطوال فى مدح الأستاذ حتى أرقصه طربا . وكان أبو الطيب قد إشتهى أن يمنحه كافور إقطاعا من أراضى مصر ووعده كافور بذلك يوما بعد يوم ، فلما طال إنتظاره وامتد الى سنتين كاملتين ولم تنجب مدائحه الغناء شيئا غادر مصر مغضبا ، وانقلب على كافور وهجاه ما شاء له الهجاء من أشعار والفاظ مريرة قاذعة .

ولما مات كافور سنة ٩٦٨ بعد حكم طويل مدته إثنتان وعشرون سنة إجتمع– رجال البلاط الإخشيدى واختاروا من تلقاء أنفسهم ومن دون رجوع الى الخلافة سليلا إخشيديا إسمه أبو الفوارس ليكون أميرا على مصر وممتلكاتها ، كما اختاروا سليلا إخشيديا ثانيا ليكون وليا للعهد من بعد أبى الفوارس ، وفى ذلك كله دلالة واضحة على أن نفوذ الخلافة العباسية أمسى طيف خيال مشلول فى البلاد المصرية وأن الدولة الإخشيدية نفسها أمست عمليا أو كادت فى خبر كان ، دون أن يترك ملوكها فى الحضارة المصرية عاصمة لدولتهم كما فعل الطولونيون ، أو بقايا مادية أخرى تدل عليهم ماعدا مشهد آل طباطبا العلويين ، وإسمه مشهد الأطباء عند العامة ، وهو على مقربة من قبة الإمام الشافعى ، وماعدا مسجد يحيى الشبيهى الذى لا يوجد منه سوى محرابه المحفوظ بالمتحف الإسلامى .

مصر فى عصر الدولة الفاطمية :

على أن مستقبل مصر والدولة الإخشيدية لم يكن بيد الخلافة العباسية ، بل بالدولة الفاطمية الشيعية التى تأسست فى تونس ، ونشرت سلطانها غربا حتى أقصى مراكش وسواحل المحيط الأطلنطى ، وهددت بالزحف شرقا لهدم الخلافة العباسية ولذا تحتم عليها بادىء ذى بدىء أن تستولى على مصر والشام عاجلا لا آجلا ، لتكون على مقربة من العراق وبغداد . ولذا حاول الفاطميون فتح مصر عدة مرات منذ سنة ٩١٣ ، أى منذ أوائل المدة التى عادت البلاد المصرية فيها للخلافة العباسية بعد الطولونيين ، وظلت محاولات الأستيلاء على مصر محورا للسياسة الفاطمية التونسية حتى استطاع رابع الخلفاء الفاطميين وهو المعز لدين الله أن يستولى عليها وأن يزيل الدولة الإخشيدية منها إلى خبر كان سنة ٩٦٩ .

وتولى قيادة الجيش الفاطمى الذى استولى نهائيا على مصر القائد جوهر الصقلى ، وهو وزير الخليفة المعز لدين الله ومشيره وصاحب ثقته المطلقة ، ففى أوائل سنة ٩٦٩ ، زحف جوهر على الإسكندرية وحاصرها حتى سلمت له بأمان وشروط شرطها الإسكندريون ، ومنها ألا يتعرض الجند الفاطميون للناس بأذى فى عقائدهم أو أموالهم . وكان احترام جوهر وجنده لتلك الشروط سببا من أسباب سهولة تسليم الفسطاط كذلك للفاطميين فى أواخر يوليه من تلك السنة ، حين دخل جوهر العاصمة المصرية الإسلامية العتيقة ، وأعلن سيادة الخلافة الفاطمية على البلاد .

وعاشت الخلافة الفاطمية فى مصر مدة قرنين من الزمان (٩٦٩ – ١١٧١) وهذه مدة طويلة بالنسبة لزمن كل من الطولونيين والإخشيديين . والسبب الأول فى ذلك أن الخلافة الفاطمية لم تقم فى مصر كقيام الدولتين السابقتين على عاتق رجل واحد جاء واليا من قبل الخلافة العباسية ثم استقل بولايته عنها ، بل كان للدولة الفاطمية من العمر فى دورها التونسى قبل أن تأتى إلى مصر قريبا من قرن من الزمان ، كسبت فيه كل تجارب الحكم والسياسة ، وهذا فضلا عن مقدرة الخلفاء الفاطميين أنفسهم ثم إن العامل الدينى ، وهو أن الخلفاء الفاطميين كانوا يعتبرون من نسل فاطمة بنت النبى عليه الصلاة والسلام ، وأن دولتهم قامت فى تونس على أساس أحقيتهم بالخلافة منذ صميم أيامها الأولى ، وأن مذهبهم الشيعى إنتشر فى كثير من أقاليم الخلافة العباسية والدول الإسلامية المعاصرة ، وكل ذلك جعل استيلاءهم على مصر محوطا بالهيبة والخشية والرضى الصامت .

ثم انتقلت الخلافة الفاطمية من تونس إلى مصر بعد ذلك الإستيلاء فجاء إليها الخليفة المعز لدين الله سنة ٩٧٢ ، أى بعد مضى أربع سنوات من تاريخ دخول الفاطميين مدينة الفسطاط . وفى تلك السنوات الأربع عمل القائد جوهر الصقلى على تنفيذ الخطة والسمة التى من أجلها فتحت مصر ، وهى توسيع رقعة الدولة الفاطمية غربا ، بحيث تضم مصر والشام والحجاز بالحرب والفتح والنصر تمهيدا لمناجزة الدولة العباسية فى عقر دارها بالعراق . وابتسمت المقادير ، ووفرت على جوهر بعض المجهود الحربى الذى يتطلبه الإستيلاء على الشام والحجاز ، إذأرسلت مكة والمدينة وحلب إليه تعترف بالخلافة الفاطمية وسيادتها غير أن كلا من دمشق وبيت المقدس شذ عن ذلك الأعتراف السياسى ، وكان بهما بقايا إخشيدية ، فسير جوهر إليهما جيشا إستولى عليهما حوالى سنة ٩٧٠ .

على أن السيادة الفاطمية ظلت مهددة فى الشام وفلسطين بإغارات القرامطة الذين أتعبوا الدولة الإخشيدية وأسهموا فى إضعافها وهدمها ، بل إن إغارات أولئك القرامطة هددت الخلافة الفاطمية نفسها وهى فى نشأتها الأولى ، وذلك باغارتهم على أطراف محافظة الشرقية الحالية ، كان ذلك التهديد الذى تعرضت له السيادة الفاطمية هو الذى دعا المعز لدين الله إلى الإسراع فى المجىء إلى مصر سنة ٩٧٣ .

وفى أثناء تلك السنوات الأربع كذلك إختط القائد جوهر عاصمة مصرية فاطمية جديدة شمالى العواصم المصرية الاسلامية السابقة ، وسماها المنصورية نسبة إلى الخليفة المنصور أبى المعز ، ثم سماها القاهرة فيما بعد . وبنى قصرا للخليفة الفاطمى ، كما بنى جامعا يكون للعاصمة الجديدة مثل الجامع الطولونى